حضور الماء في الشعر الجزائري المعاصر

د/أحمد قيطون
جامعة ورقلة(الجزائر)

لقد أدرك الشاعر المعاصر قوة اللغة وقدرتها على قول العوالم الداخلية والعميقة للإنسان وهذا عكس الشاعر القديم الذي كان ينظر إليها عل أنها مجرد وسيلة لغاية نفعية متمثلة في إبراز قيمة من القيم الاجتماعية أو الأخلاقية. إضافة إلى توخيه الوضوح و البساطة و المباشرة.

لقد وجد الشعراء " في الرمز الطبيعي مسقطا يسقطون فيه الواقع غلى الطبيعة، فلا يقعون على الأغلب في غموض الرمز التراثي أو الخاص من ناحية ،ويتجنبون به التعبير التقريري أو المباشر .من ناحية ثانية .. " (1) . فالرمز يبعد نصه عن النثرية ، و يضمن له تعددا في الدلالات ، لكن هذا التعدد لا يحصل في النص إلا إذا أتقن الشاعر لعبة الصياغة الرمزية المبنية على خصائص الرمز، كالسياقية التي تشكل أحد الركائز الأساسية في تحويل اللفظة من العالم الإشاري إلى العالم الرمزي .

ومن الرموز الطبيعية التي لهجت بها دواوين الشعراء رمز الماء الذي كان له انتشار واسع على مدى النصوص والدواوين الشعرية التي اطلعنا عليها، فالماء قد حمل الكثير من الأفراح كما أنه حمل كثيرا من الأحزان، لذا كان مرتبطا بالموت والحياة .

وقبل أن نبحث عن الحضور الرمزي للماء داخل السياقات الشعرية نحاول أن نعود إلى المعاجم العربية لنرى أسرار الماء في اللغة.

لقد جاء في لسان العرب في مادة (موه) ؛الماء والماه والمادة، معروف وحكى بعضهم اسقيني ما مقصورًا، على أن سيبويه قد نفى أن يكون اسم على حرفين احدهما التنوين وهمزة ماء منقلبة عن هاء بدلالة ضروب تصاريفه على ما أذكرهاالآن من جمعة وتصغيره، فإن تصغيره موية، وجمع الماء أمواه ومياه، وحكى ابن جني في جمعة أمواء، قال أنشدني أبو علي:

وبلــــــــدة قالصــــــــة أمواؤهــــــا
تســـتن فـــي رأد الضـــحى أفياؤهـــا
كـــــأنهم قـــــد رفعـــــت ســــماؤها[2]

إن المعاجم اللغوية قد ارتكزت في تعريفاتها للمفردات على المصادر الشعرية والأسطورية، كما فعل ابن جني حين استشهد بالشعر لتبرير الجمع الذي جاء به وهو أمواء، وهو ما لاحظته الباحثة تناء أنس الوجود إذ تقول <<إن المتأمل في هذا الركام الهائل من المصطلحات المعجمية التي أحصاها علماء اللغة العرب لابد وأن يلفته شيئان أولهما:

تلك الروح الشاعرية المختلطة بالأسطورية في تناولها تناولا معجميا لمعطيات البيئة المحيطة بالعربي ومنها الماء وهذا يعني أن المعجم العربي قد أخذ فعلا مادته اللغوية بمفرداتها وتراكيبها من مصادر قديمة أهمها الشعر العربي والأساطير، سواء أكانت أساطير رمزية أم طقوسية أم تعليلية>>[3] إن هذا الشاهد للباحثة، دلالة على أن الماء كانت مفاهميه ضاربة بجذورها في الأساطير، لهذا أثرت على الإنسان العربي في بيئته التي كانت توصف بالجدب لقلة الماء فيها، وهذا ما نلمسه من خلال الدلالات اللغوية الكثيرة للفظة الماء، من خلال النصوص الشعرية القديمة، فقد كانت لفظة الماء هي الكلمة الأساسية في لغة الصحراء، حيث كانت تدل على البركة والشفاء، كقول عبيد بن الأبرص:

فذاك الماء لو أني شربت به إذا شفى كبدا شكاء مكلومه

والماء يعف كذلك العز والمنعة والكرامة والشرف، كقول الحصين بن الحمام المري:

أثعلب لو كنتم موالي مثلها إذا لمنعنا حوضكم أن يهدما[4]

والماء يعني النهاية المحتومة للحياة كقول بعض الشعراء منهم عنترة.

إن المنية منهل

وقول الخنساء:

وحوض الموت مورود

وكقول النابغة:

يتساقون المنية

كما يحتمل الماء معنى السعادة والكرامة والعزة والشرف وطيب العيش، وهذا ما عبر عنه عمرو بن كلثوم في بيته المشهور:

وأنا الشاربون الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا[5]

إن المتأمل لهذه النصوص التي تحمل في سياقاتها لفظة ماء يخرج بنتيجة لطالما تكلمت عنها وروتها الأساطير، وهي الحياة والموت، فالماء هو الحياة وهو الموت في الآن نفسه، وهو ما نجده مرسوما في القرآن الكريم، في عدة آيات من سور مختفة كقوله تعالى: <<وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون>>[6].

وقال أيضا: <<وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها>>[7].

وقال جل ثناؤه:

<<ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله>>[8].

وقال أيضا: <<والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجليه ومنهم من يمشي على أربع>>[9].

ومنه فأصل الموجودات كلها من الماء وهذا هو السر الذي جعل الأمم والحضارات تهتم بالماء وتقدسه أيما تقديس، لأنه الضامن لبقائها واستمرارها فإذا رجعنا إلى تاريخ الحضارات، فقد نجد أنها اقيمت على ضفاف الأنهار والوديان ذلك أنها كانت تعي سر الماء.

ولأجل هذا السر <<كانت وظيفة السقاية تموين الحجاج بالماء– منوطة بأرستقراطية مكة، وبما أن الماء مخصب ومنظف وطهور، اعتبر لهذا رمز تبرعم النباتات وخصبها، <<وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به، جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، زرقا للعباد>> وتكررت هذه الفكرة ثلاثين آية>>[10].

كما قد اهتمت الأساطير القديمة وجعلته الأصل في كل شيء<<ففي أساطير مصر القديمة كان أقدم ما تخيله المصريون في أصل العالم المعمور، أنه عالم واسع من الماء طفت عليه بيضة عظيمة خرج منها رب الشمس وأنجب أربعة أبناء...>> [11].

وغيرها من الأساطير التي قدست البحر<<فالإله بوسيدون في الأساطير الإغريقية هو الإله الرئيسي للبحر والمياه الذي يستمد منه النصر في صراعات البحر، وتقدم إليه الأضحيات وقد ظهر هذا الإله فيما بعد بوصفه إلها للعيون والآبار، ولهذا فقد ارتبط في الصلاة بالحوريات اللاتي يسكن العيون والأنهار>>[12].

هذه النصوص الأسطورية أردناها في مبحثنا هذا رغم قلتها لنبين أن الماء كمفهوم قد تعددت معانيه حسب كل مرحلة إلا أن كل هذه المعاني تدور حول حقل دلالي واحد هو الحياة والموت، هذا المفهوم الأخير توارثه الأجيال، فمنذ بدء الخليقة ومرورا بالعصر الجاهلي الذي لعب فيه الماء دورا كبيرا في تسيير شؤون الحياة العربية وبقائها، إلى يومنا هذا وكيف أصبح الماء يشكل خطرا على العالم وذلك لقلته.

لقد عرف باشلار كيف ينفذ إلى أسرار الماء وتحولاته فبين هذه الأسرار وكشف عن مغاليقها، فبين المياه الصافية والمياه الربيعية، والمياه الجارية، والمياه العاشقة، والمياه العميقة والمياه الراكدة، والمياه الميتة، والمياه المركبة، والمياه العنيفة والمياه العذبة>>[13]. هذه الأمواه التي حاول بشلار أن يقدمها لنا في ارتباطها بالحلم وبالشاعرية، فالماء له ارتباط بالشعر إذ الشاعر هو الانسان الوحيد الذي يتقن جيدا فن الإصغاء للماء وللأسرار التي لا يبوح بها إلا لعاشقه. وهذا ما جعل باشلار يصور الماء على أنه كائن، إذ يقول <<هكذا سيبدو لنا الماء مثل كائن شامل، له جسد، وروح، وصوت، وقد يكون للماء، أكثر من أي عنصر آخر، واقع شعري كامل، ويمكن أن تضمن وحدة ما شعرية الماء، على الرغم من تنوع مشاهده، إذ يجب أن يوحي الماء إلى المشاعر بواجب جديد>>[14].

لهذا فقد حفل الشعر العربي بالماء باعتباره مكونا من مكونات الحياة والوجود، فإذا استقرأنا المتون القديمة، إلا ووجدنا في كل متن فيها علامة لغوية دالة على الماء سواء من قريب أو من بعيد كوصف المطر والسحاب والبرق وغيرها من المظاهر الطبيعية المشكلة للماء فلا عجب إن وجدنا كل هذه الأوصاف، وهذا الاهتمام بالماء إذ عرفنا أن هذا الشاعر كان يعيش في مكان اسمه الصحراء هذا المكان الذي لا يقابله اسم إلا اسم الماء.

فارتبط الشاعر في تلك المرحلة الأولى بالماء، وجعله عنوانا لكل مرحلة من مراحل نظم قصيدته إذ ارتبط بالمقدمة الطللية، التي أعطيت لها تفاسير عدة، كالتفسير الواقعي، والنفسي والفلسفي والرمزي والبنيوي إذ <<التفكير في

المطر في الوقفة الطللية يستمر في وصف المرأة عندما يعبرون عن شوقهم إلى المطر، ببناء صورة متحدد بين الثغر العذب والمطر الطيب، أو عندما يكون الضعن الراحلة، ويختارون لدموعهم شبها بماء الناقة السانية التي تستخرج الماء من البئر العميقة وتحول الصحراء إلى جداول رقراقة>>[15].

فإذا ارتبط الماء بالمرأة، فلأن كليهما رمزا الخصوبة والاستمرار، واجتماعهما يعطي للحياة أكثر من معنى، خاصة لدى الشاعر الجاهلي، الذي يعتبرهما حلما، كحلم الخلود.

<< كما يبقى التفكير في المطر عندما يصفون رحلة الشاعر الجاهلي في الصحراء الضمأي، فالإبل تشم الماء وتتوقع المطر، وتستقر بجانب مورد الماء الذي رحلوا من أجله، ومن أجله رحلت المرأة، وأقفرت الديار، وتحولت أطلالا يبابا>>[16]

فها عنترة يصف طللا عادت إليه الحياة بفضل الغيث:

نسجت يد الأيام من أكفانها	**حللا وألقت بينهن عقودها**
وكسا الربيع ربوعها أنواره	**لما سقتها الغاديات عهودها**
وسرى بها نشر النسيم فعطرت	**نفحات رواح الشمال صعيدها**[17]

و إذا كان للطلل علاقة بالحياة والموت فإن للماء العلاقة نفسها ، مثلما أثبتت ذلك النصوص الدينية . وهذا ما جعل ظاهرة دعاء سقيا القبور تشكل عادة شعرية اهتم بها الشعراء لارتباطها بالجذور الأسطورية التي تم إحياؤها من جديد في زمن العصر الجاهلي من خلال الممارسات التي كان يمارسها الإنسان العربي في تلك المرحلة. فـ<<الأهمية الخاصة التي ينطوي عليها ابتكار نموذج هذه العادة الشعرية: دعاء سقيا القبور، تتمثل في أنه لم يكن تقليدا لنموذج أخر مفرغ من المعنى بل أن هذا الابتكار يشير إلى تلك الجذور الأسطورية الخارقة للعادة المتمثلة في اللماء... فصارت عادة دعاء سقيا القبور تكشف عن حقيقة بشرية مضمرة تتعلق بالموت والحياة>>[18].

كما ارتبط الماء بتيمات أخرى جعلها بعض الباحثين ملازمة له، كالماء والسفر،وهذا ما نجد سحره عند باشلار حين يتحدث عن الشعر والشعراء في مؤلفه إذ يقول <<وهكذا فالوداع على شاطئ البحر أكثر ضروب الوداع تمزيقا، وأكثرها أدبية معا لأن شعر الوداع يستغل أعماقا قديمة للحلم والبطولي ويوقظ فينا من دون شك الأصداء الأكثر إيلاما، ذلك أن أسطورة الرحيل على الماء توضح جانبا كاملا من نفسنا الليلية >>[19] ولعل هذا الارتباط له علاقة بالموت، إذا الماء والسفر خاصة على وجه البحر، يدفعان بالإنسان إلى تأمل الموت نظرا لما يحمله البحر من رموز الرهبة والخوف والحزن، وربما نص الشاعر حكيم ميلود الذي نقحمه في هذه الورقة يثبت هذه الفرضية، إذ يرثى الشاعر صديقا له مات في عرض البحر فيقول في النص الذي عنونه بـ لم يكن سفرا" وبالعتبة التي هي عبارة عن إهداء" إلى الصديق كمال الدين حاجي الذي احتضنه البحر"

لم يكن سفرا
لأقول انتهينا من العمر
وانطفأت لغنات العواصم قبل الوصول
إلى هدف الريح
حين ينوح على الدرب نأي الفصول
وينغلق الباب في الصمت
أو في كلام الدليل
لتتبع وحدك يا صاحبي سفر المستحيل
لتتبع دهشة بحر رأيناه
وافترقنا لنشرح للأصدقاء انخطافك بالأزرق الأزلي
...
....
لم يكن سفرا
ليفرقنا الموت، أو تلتقي بي على صفحات الجرائد...
من أندلس كنت تخرج حتى ترى شمس تركيا
التي أشرقت في الحنين
تنام على موجة لاحقا حوريات الأساطير[20]

بهذه الثنائية يربط الشاعر بين هذا الثالوث الماء والسفر و الموت والذي يشكل كل واحد منهم عالما منفردا لوحده، فالماء قد تكون فيه الحياة وقد يكون فيه الموت كالطوفان.

والسفر يحمل المشقة والعذاب لهذا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال السفر قطعة من العذاب"، كما يعتبر حياة للذي ألمت به الخطوب والمصائب، فالسفر له دواء، أما الموت فيحمل في نفسه ذاته ويحمل معنى الحياة، إذ الموت هو الانتقال إلى عالم آخر، فكل نهاية تتلوها بداية جديدة.

لقد ترك الماء في نفسية الشعراء أثرا بالغا إذ ربطوه بعدة عناصر مختلفة كلها تحيل إلى حقل كبير حقل الحياة والموت<<فالماء ومفاعيله وتجلياته ومساربه، ومجاريه وتجمعاته، كلها تشكل مصدر بهجة الشعراء، ومصدر إلهامهم، في كثير من موضوعات شعرهم، وصوره ورموزه ولغته ونسيجه الفني بصورة عامة، وذلك في مختلف العصور الأدبية وفي مختلف أماكن وجودهم وحلهم وترحالهم سيان كان الماء شحيحا نادرا أم غزيرا دافقا، فالماء في الحالتين يبقى هو المغذي لدينامية خيالهم والملهب لأذهانهم وعواطفهم وتجاربهم الفنية والوجدانية>>[21].

وهذا ما وجدناه متجسدا في نصوص الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين فتنهم سحر الماء ، فجاءت نصوصهم مليئة بلغة الماء الذي لا نقبض على لونه، وبصور يمتزج فيها الواقعي بالحلمي، فتلك فتنة المتخيل.

لقد حاول الشعراء الجزائريون المعاصرون أن يلامسوا الموضوعات التي لامسها غيرهم من المشارقة والأوربيين، وهذا ليس من باب التقليد ولكن على اعتبار أنها تيمات انسانية مشتركة مفتوحة على الرؤى المتعددة . لذا قد تنوعت الحقول الدلالية في النصوص الشعرية التي اتخذت من الماء رمزا ، إذ وجدنا دواوين كاملة معنونة بعنوان الماء، اشتغل أصحابها على ترميزات متنوعة ومختلفة لا تشابه بينها ولا تناسخ.

فهذا الشاعر "عبد الحميد شكيل" يطل علينا بعملين شعريين يحملان لفظة الماء، إذ نجد في الديوان الأول معنونا "بتحولات فاجعة الماء"، والثاني عنوانه،"مرايا الماء" لكنهما يحملان رؤى مختلفة لتجارب مختلفة ، فمن النص الأول "الشجر المقاوم" إلى آخر عتبة في الديوان وهو نص الزهو يليق ببونه " يتحرك الشاعر في عوالم مدهشة، أقل ما يقال عنها أنها عوالم سحرية لا يرتادها إلا شاعر يمتلك جرأة كبيرة في الدخول إلى المسالك المجهولة والمحفوفة بالمخاطر، تلك المجاهل هي اللغة وتراكيبها الإنزياحية التي يشتغل عليها عبد الحميد شكيل، مشكلا بها نصوصا تميل في معظمها إلى المقامات الصوفية التي ينتشى بها المتصوف في خلوته:

فكان حضور الماء في كل نص وكأنه اللازمة التي على الشاعر أن يفتتح بها مقاماته. لكن ما نلاحظه أن الديوان يتحرك نحو دلالات معينة، تلك الدلالات التي حدد بعضها العنوان– تحولات فاجعة الماء– إذ يحيل الماء إلى علاقته بالموت، بعدما كان علامة على الحياة. وهذا واضح من خلال اللوحة الموجودة على الغلاف والتي تشكل صورة دم مراق مختلط بالماء، وكأن بالفنان يريد أن ينقل لنا العوالم الداخلية للنصوص الشعرية التي اختلط فيها الدم بالماء.

ففي نص خيبات الماء/ مسرات الغربان الذي ينطلق منه الشاعر باعتباره عنوانا يحدد مسار توجه القارئ أو يبرر قيمة العمل حسب شارل غريفيل الذي انتهى إلى صياغة ثلاث وظائف للعنوان هي:

أ–تحديد هوية العمل.

ب–تعيين مصمونه.

ج–إبراز قيمته (لهذه الوظيفة علاقةب: إغواء الجمهور)>> [22].

وهذا مانجده في العنوان الذي جعله الشاعر عبد الحميد شكيل لنصه، حيث يفتح المجال للقارئ للدخول في احتمالات المعنى وفي تأويله فهو مشكل من متقابلين أومن ضدين فكلاهما نكرة أضيفتا إلى معرفة

فخيبات≠ مسرات.

خيبات الماء≠ مسرات الغربان

هذا العنوان الذي يحيل إلى ثنائية الحياة والموت، ولكن الشاعر قام بانزياح على مستوى التركيب ،حيث أعطى للماء صفة الخيبة وللغربان صفة المسرة، لكن عندما تعيد ترتيب وإعادة الامور إلى أماكنها فإننا سنحصل على أن الماء من خصائصه المسرة، والغربان من خصائصه الخيبة باعتباره الشاهج على الجريمة الأولى المتمثلة في القتل وهو ما جعل الشاعر يستدعيه في بداية النص، الذي يروي متنه تفاصيفل الموت حيث المقطع الثالث من بين المقاطع العشرة المكونة لهذا النص، يروي فيه الشاعر تفاصيل الاغتيال اغتيال الكلام، اغتيال الشعر من خلال اغتيال الشاعر العربي العراقي صديق الشاعر الجزائري. ومنه يتحول الماء إلى فجيعة تزيد الجرح إيلاما، إذ يقول الشاعر:

نرتـــــــــــــدي عرينـــــــــــــــا
نســــكب المـــــاء فجيعـــــة علــــى قمـــة الجـــرح!
يشــــخب وحـــش المراثـــي يــــنهض مـــن غفوتـــه الكبـــرى
متشـــــــجا بالبيـــــــاض بصــــــوت البصــــــرة
يبــــــدأ "التســــــول فـــــي ارتفــــــاع النهــــــار"
يقـــــيم ممالكـــــه فـــــي الأرجـــــاء المهملــــــة!
مــــن جنـــــوب العـــــراق البعيـــــد، البعيـــــد:
مــد الجنـــاح ، والصـــوت، والشـــعر واللغـــة المنتقـــاة!
وقـــال لأرض الجزائـــر: دمـــي ، وشـــعري وغربـــة روحـــي، وشـــوقي
لأهلــــي هنالــــك فــــي أقاصــــي العــــراق الجـــريح
لكنه الموت الفجاءة. يا محمد كان يساوق خطوك في معراج الكلام!
ذنبـك -يامحمـد-حـب الجزائـر والبحـر، وشـد والقبـرات، ودفء
امـــــراة مـــــن ريـــــف "الطـــــاهير المعنـــــى
وصــوت أطفـــال يلحـــون علـــى معنـــى الاغتيـــال: ولمـــاذا ازدهـــر
المـــوت المباغـــت، رغـــم الربيـــع الـــذي يلـــف الـــبلاد؟
مـــــا معنـــــى قتـــــل الكـــــلام البـــــديع؟
لمـــــاذا الـــــبلاد الجميلـــــة تضـــــيع؟
وجـــــل الرعيـــــة، تحـــــدق فـــــي أفـــــق لايبـــــين!؟ [23]

بهذه الأسئلة المفتوحة التي لا تلقى من يجيب عنها، لهول الكارثة ولعظم الفاجعة، فاجعة الماء/فاجعة الأرض/ فاجعة الحياة. وجدنا الشاعر يوحد بين الماء والموت، مثلما وجدناه عند الشاعر الحكيم ميلود في رثائه لصديقه. "فالموت رحيل .....ولا نستطيع أن نرحل تماما، بشجاعة ووضوح. إلا بمتابعة خط الماء، وتيار النهر العريض، فالأنهار كلها تصب في نهر الأموات"[24]. وهذه إحدى الدلالات التي يحملها الماء وهي الموت. كما ارتبط بالشعر عند الشاعر "عبد الحميد شكيل" ،إذ يقول في نص"ضراوة الأجراس"المهدى إلى عبد الحميد بن هدوقة" وفي المقطع التاسع منه:

أكتـــــــــب المـــــــــــاء والشـــــــــجر
وأســـــــــــــــلم يـــــــــــــــدي
لضـــــــــراوة الأجـــــــــراس واللغـــــــــة
وبيننـــا مجمـــرة العشـــاق، تتضـــح بالإشـــراق والألـــق
يـــــــدي ســـــــبورة مـــــــن الفلـــــــق
وقـــــامتي قصـــــيدة مـــــن الكـــــلام المنزلـــــق[25]

هذا النص الذي ينتمي إلى تلك الخطابات الشعرية، التي تتحول الدلالات فيه من حالة إلى حالة، وهذا ما نجد معناه عند محمد مفتاح حين كتب يقول" إن المحدثين والمعاصرين الذين تأثروا بالتيارات السيميائية المعاصرة، صاروا يقصدون اللغة بسبق الإصرار. وهكذا نجد في قصائدهم مايحاكي أصوات طبيعية، وحشدا هائلا من أسماء الأعلام المختلفة ذات الدلالات الايحائية، وألفاظا عتيقة ضاربة في أعماق التاريخ أو حديثة آتية من من آفاق مختلفة. وهذا التداخل المعجمي يخلق عدة معان فرعية عرضية تقرأ بتشاكلات مختلفة بحسب الوسط الذي دعيت منه كلمة مايجعلها مؤشرا" كنائيا عليه، وقد تصبح أيقونا إذا توفرت فيها علاقة المثلية أو المشابهة>>[26]، وللماء دلالة التمرد والتغيير عند مصطفى دحية هذا الذي يريد أن يقول كلاما لم تقله شفة، أن يطأ أمكنة لم تطأها قدم. وكل هذا لا يتأتى إلا بنفي الآخر أي بقتل الأب.

يـــــــــــامن رآنـــــــــــــــــــي
أحمـــــــــــل قربـــــــــــة المعنـــــــــــى
وأســـــــــــــقي فطـــــــــــــرة الأولاد
أقتـــــــــــل فـــــــــــيهم الجـــــــــــد
اتبعـــــــــــــت الأحفـــــــــــــاد
هـــــــــذا أنـــــــــا الآن أمعنيـــــــــــي
مـــــــا كـــــــان لـــــــي أكـــــــون
حتـــى صـــدى أبـــي ومـــن قبلـــه جـــدي
وبصـــــــــــــــــــــــــــراحة
قتلـــــــــت المعنـــــــــى فيهمـــــــــا
فللمعنـــــــــى وجهـــــــــة واحـــــــــدة
أن تـــــــــــراه ولا يـــــــــــراك[27]

فالشاعر يريد ممارسة فعل القتل الرمزي،من خلال قتل المعنى القديم أو المفاهيم القديمة، حتى يضمن لنفسه جيلا جديدا منفتحا على العالم وعلى نفسه، ومرتادا مجاهيل جديدة لم تكتشف بعد.

ويحمل الماء دلالة" الإنجذاب نحو البديات" كما نلمس ذلك عند الشاعر حكيم ميلود، في حدائق الأسرار وفي نص منه عنونه ب" آية الماء" التي تحمل معنى العظمة والسر. وعليه يكون الإنجذاب نحو البدايات الأولى أساس السر الذي يبحث عليه الشاعر، فالبدايات هي الحاملة للأسرار الأولى/ للدهشة الأولى/ للطفولة الأولى.

هوالمـــاء آيـــة ســـر ومنتجـــع للخفـــوت الخفـــي
لهمـــس يلامـــس أحجـــار ذاكـــرة شـــردتها التعاويـــذ
مـــاء يـــوزع فـــي الجهـــة المســـتحيلة خفقـــة
يغـــري الجـــذور، وعشـــب الحـــدائق، والســـيدات
اللـــواتي يعلقـــن فـــي الصـــحو جـــرح نهـــارا تهـــن

ويلمــــــــس حــــــــين يشـــــــاء دواخلنــــــــا
ليبلــــــــل قاماتنــــــــا القرويــــــــة بالإنتظـــــــار
ليتـــــــــرك فينـــــــــا مناراتـــــــــه
نحـــــن أبنــــاء هـــــذا الجفـــــاف القــــديم
وســـادة عـــري تعلمـــه الصـــحراء لعشـــاقها الهـــائمين
ســــنرفع كــــل صـــباح إليـــه أكفـــا تضاريســـها
جرحتهـــــــا الـــــــــرؤى والكهانـــــــــة[28]

يحيل هذا المقطع إلى حنين الشاعر إلى البكارة الأولى، حيث الماء هو سر الوجود،وذلك من خلال الذاكرة التي تحمل تفاصيل البحث عن الذات في مغامراتها الأولى.

وباعتبار القصيدة الشعرية الجزائرية المعاصرة وثيقة أدبية هامة في مسار الحركة الشعرية العربية.خاصة قصائد الجيل الجديد أو جيل الحداثة كما يسميه البعض. حاول الشاعر على بوزوالغ في مجازاته أن تكون نصوصه شاهدة على مرحلة الدم الذي لون كل صاف في فترة الأزمة التي مرت بها الجزائر.لذا اقترن الماء بالدم عند الشاعر

مـــــن يجرؤعلـــــى الســــباحة فـــــي نهـــــر الـــــدم
البحــــــــــار جليـــــــــــــد اللغـــــــــات
صـــــــــــليل الســـــــــيوف الضــــــــالة
انهيـــــار المســـــيح.....ســـــقطة النبـــــي العربـــــي
البحــــار دمـــــاء علـــــى أصـــــابع الأنبيـــــاء
رحلـــة الجـــراد حــــين لا يجـــد مــــن يغنـــي ســـلعته
البحـــــــار كفــــــت عــــــن أن تكـــــون
البحـــــــــار صـــــــــارت تخـــــــــون
و مــــا عـــــادت معبـــــر العصــــافير و الأمنيــــات
و مــــا عــــادت فــــي بــــال العشـــــيقين
تقـــــــــــــذف الأغنيــــــــــــات
البحــــــار انتحــــار يقــــول عاشــــــق[29]

لهذا الأثر البالغ للفظة" البحر" في نفسية الشاعر جعله يكررها ثلاثة عشر مرة، منها خمسة في هذا المقطع،و هو ما جعله يتسم بالسوداوية التي غطت النص بفعل التغير الذي طرأ على القيم و التي جعلت أنظمة المفاهيم تعيش حالة الفوضى و النقيض.

و يحضر الماء كرمز للأنوثة في نصوص كثيرة و لشعراء مختلفين،جمعوا بين عالمين من عوالم هذا الوجود،إذ يعطي هذا الجمع حياة أفضل . فالماء هو المادة الخصب للحياه. و المرأة هي الكائن الذي تستمر به الحياة كذلك، و

استحضار الأنثى كان استحضارا للجسد و الشهوة و الحواس و الرغبة و الشغف. و هو حفر في جدليات الأنوثة و الماء"[30]

اذ يقول الشاعر رابح حمدي في نص "فاكهة البحر"

هـــــــل ســــــــعيرك يغمســــــــني فــــــــي ســـــــعيري
و يزرعنـــــــــــــي فـــــــــــــــي أنـــــــــــــاي؟
هـــــــــل شـــــــــفاهك نرجســـــــــة الـــــــــروح؟
هـــــــل صـــــــدرك البحـــــــر كـــــــي أتـــــــورط ثانيـــــــة؟
هـــــــل عيونـــــــك نبـــــــع وهـــــــج الروعـــــــى؟
أنـــــــــت فاكهـــــــــة المـــــــــاء
نهـــــر مـــــن الكـــــوثر يطفـــــح الآن فـــــي جســـــدي...
أنـــــــت أيتهـــــــا المهـــــــرة النائليـــــــة
يـــــــا المســـــــتحمة بالصـــــــبوات..
أيـــــا شـــــجرا يتعـــــرش فـــــي ظمئـــــي
أســـــــــــــترد رمـــــــــــــادي
علـــــــــى أفـــــــــيض بشـــــــــمس
تلـــــــوح بأجنحـــــــة مـــــــن رؤى[31]

فجدلية الماء و الأنوثة في هذه النص جعلت الشاعر يدرك ما في الروح من مفاتن تتفاوت في درجتها مفاتن الجسد الشبقى".

وربما هذا الوعى وجد عند الشاعر الجاهلي لكن بفهم مغاير و ذلك باتخاذ الجسد رمزا لقيم مختلفة إذ "تأتي في الشعر الجاهلي صور كثيرة تربط بين الثغر العذب و فكرة المطر، يتحول معها ثغر الحبيبة الباسم إلى نبع للخير المطلق و مصدر لماء الحياة، نحسن من خلاله أن الشاعر الجاهلي لم يكن يتغزل و إنما كان يعبر عن رغبته في إستقبال المطر"[32].

و هذا ما لمسناه عند الشاعر رابح حمدي في نصه إذ تغلب عليه تلك التأملات الصوفية مع المحبوبة،وذلك من خلال اللغة الصوفية التي إعتمدها كلغة لها إشراقاتها وإيحاءاتها الخاصة كألفاظ الروح، وهج، الرؤى، الكوثر، ظمى، أفيض، شمس.

كما يأتي الماء ليحمل دلالة الهلاك في نصوص أخرى أرخت لأزمة الجزائر .برؤية مختلفة و مغايرة.حيث تعود قصص الأولين الذين أهلكوا بالطوفان و بغيره، كما فعل ذلك فاتح علاق في نصه "إنكسارات ربيعية "حيث يقول في المقطع الثاني.

كـــــــــذبت عـــــــــاد بالنـــــــــذر
و راغـــــــت ثمـــــــود إلـــــــى نـــــــاقتي

بعـــــــــد أن ثـــــــــاب قلبـــــــــي إلـــــــــى النهـــــــــر
فـــــأين ســـــيولك كـــــي تفـــــتح الجـــــرح فـــــي الحجـــــر؟
هـــــــــذا زمـــــــــان أضـــــــــاع الطريـــــــــق
فكـــــــــــن أنـــــــــــت أنـــــــــــت
غمرتنـــــــــا ميـــــــــاه المحيطـــــــــات ســـــــــهوا
و لا ســـــــــندباد لنـــــــــا غيـــــــــر هـــــــــذا الحريـــــــــق[33]

لقد إستطاع الشاعر أن يوفق في إستدعاء الشخصيات التراثية التي تخدم تيمة الماء و رمزيته.و ذلك من خلال شخصية السندباد المعروفة بمغامراتها البحرية. و ليجعلها عكس ما كانت عليه في تلك الحكايا التي رويت، و التي كان فيها السندباد يعود دائما منتصرا،و مملوءة ذاكرته بالحكايات و العجائب التي صادفها في مغامراته، حين يفشل الشاعر في إيجاد من ينقد هذا المجتمع من هذا الطوفان الذي باغتهم، سوى الدخول في ضد الماء و هو النار و ذلك في السطر الأخير و لا سندباد لنا غير هذا الحريق.

ومن الدلالات التي يحملها الماء في النصوص الجزائرية.الحب.هذه القيمة التي غابت في الآونة الأخيرة من عمر الجزائر حيث طغيان المادي على الروحي، حول المجتمع إلى إنسان قلق. وهذا ما نجده عند الأخضر فلوس حيث عنوان ديوانته يشير إلى أكثر من دلالة "مرثية الرجل الذي رأى"و في نص طويل بعنوان "قصائد من البحر"و في المقطع الرابع منه يقول:

البحـــــــــــــر لا ينـــــــــــــام...
فـــــي لهفـــــة المشـــــتاق يرقـــــب النجـــــوم
يمـــــــــد كفـــــــــه لنجمـــــــــة
فتختفـــــــــي وراء ســـــــــترة الغمـــــــــام
ســـــــــألته عـــــــــن ســـــــــره
فهبـــــت الريـــــاح بلـــــل الـــــرذاذ راحتـــــي
و عنـــــد آخـــــر المـــــدى رأيـــــت نورســـــا يحـــــوم
دنـــــــا و قـــــــال إننـــــــي أحبهـــــــا [34]

و الماء عند عثمان لوصيف يحمل رمز الوجود كله منطلقا من الآية الكريمة "و جعلنا من الماء كل شيء حي"[35] حيث يقول في نص "المياه"

و الطيـــــــــور التـــــــــي تعشـــــــــق المـــــــــاء
تغمـــــــــس فيـــــــــه مناقرهـــــــــا
و تغـــــــــرد مـــــــــن نشـــــــــوة وطـــــــــرب
كـــــــــل شـــــــــيء مـــــــــن المـــــــــاء

يولـــد
أو يتناســـخ
مـــــــــــن حمـــــــــــا هـــــــــــذه الكائنـــــــــــات الدقيقـــــــــــة
مـــــــــــن حمـــــــــــا هـــــــــــذه الأشـــــــــــنات
الطحالـــب
و العشـــوب
يـــــــــــا معجـــــــــــزات الميـــــــــــاه
أفيضـــــــــــي علـــــــــــى مقلتـــــــــــي العجـــــــــــاب العجـــــــــــب[36]

إذن هذه بعض الدلالات التي أتينا على ذكرها ،و يبقى هناك دلالات أخرى حبيسة السياقات النصية التي أنتجتها إبداعات الشعراء،إلا أن الشيء الملاحظ هو التفاف معظم الشعراء تقريبا حول محور دلالي واحد متعلقا بالماء و هو الحياة و الموت، هذين المحورين اللذين جاء ذكرهما في الكتب السماوية، ربطا كذلك بالماء،و عليه فالشعراء إستفادوا من هذه الرؤية الدينية ليغنوا تجربتهم و رؤيتهم الشعريتين.

هوامش:

[1]) أحمد بسام ساعي ،حركة الشعر العربي الحديث ،دار الفكر ،دمشق ،ط1 /2006 ،ص : 382.
[2] ابن منظور ، لسان العرب، مادة موه.
[3] ثناء أنس الوجود، رمز الماء في الأدب الجاهلي، دار قباء للطباعة والنشر مصر، د.ط، 2000، ص102– 103.
[4] ينظر أبو سويلم، المطر في الشعر الجاهلي، دار عمار للنشر ولتوزيع، عمان، ط1/ 1987، ص34.
[5] ينظر المرجع السابق، ص34–35.
[6] سورة الأعراف، الآية 57.
[7] البقرة الآية: 164.
[8] العنكبوت الآية 63.
[9] النور، الآية 45.
[10] مالك شبل، معجم الرموز الإسلامية، ص285.
[11] ثناء أنس الوحيد، ، رمز الماء في الأدب الجاهلي، ص26.
[12] المرجع نفسه، ص31.
[13] ينظر: غاستون باشلار، الماء والأحلام، ترجمة على نجيب ابراهيم تقديم أدونيس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2007، ص05.
[14] المرجع نفسه، ص33–34.
[15] أنور أبو سويلم، المطر في الشعر الجاهلي، دار عمار، عمان، ط1/ 19987، ص106–107.
[16] المرجع نفسه، ص107.
[17] عنترة، نقلا عن المرجع السابق، ص137.
[18] ناظم عودة، نقص الصورة تأويل بلاغة الموت المؤسسة العربية للدراست والنشر بيروت، ط1، 2003، ص66.
[19] باشلار، الماء والأحلام، ص115.
[20] ميلود حكيم، جسد يكتب أنقاضه، ص17– 18.
[21] أحمد بلحاج أية، الشعرية تتمركز في ميتفزيقا اللماء، موقع.
[22] نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، ص45.
[23] عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء، مشنورات اتحاد الكتاب الجزائريين ، ط1/ 2002، ص83– 84.
[24] باشلار، الماء والأحلام، ص114.
[25] عبد الحميد شكيل، مرايا الماء– مقام بونة، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر ط2005/1ص61.
[26] محمد مفتاح – دينامية النص.
[27] مصطفى دحية، بلاغات الماء، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1/ 2002 ص25.
[28] حكيم ميلود، جسد يكتب أنقاضه، ص27.
[29] على بوزوالغ،فيوضات المجاز، منشورات الإختلاف،الجزائر ط2001/1 ص94.
[30] آمال موسى زلة أخرى للحكمة"لجريس سماوي، دلالات الماء مجلة نزوى مؤسسة عمان للصحافة و النشر 49 سنة 2009 شهر جويلية
[31] رابح حمدي، مدائح السنديان.ص39–40
[32] أنور أبو سويلم،المطر 6 في الشعر الجاهلي ص177
[33] فاتح علاق ، أيات من كتاب السهو.ص27
[34] الأخضر فلوس، مرثية الرجل الذي رأى،ص74.
[35] سورة الأنبياء، الآية 30.
[36] عثمان لوصيف، زنجيل، مطبعة هومة، د.ط.د.ت.ص 81–82.